ظاهرة الاغتراب في الشعر الموريتاني
دراسة في الظواهر والأساليب

محمد محمدن طلحة
طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

توطئة

يعد الاغتراب من بين المصطلحات التي عرفت طريقها في الدراسات النقدية الحديثة باعتباره ظاهرة طاغية في نصوص الشعراء مبثوثة في دواوينهم، حيث تشكل القاسم المشترك لجميع لشعراء، ولعل ما يبرر الحضور القوي لهذه الظاهرة في النصوص الشعرية علاقة الإنسان بصفة عامة بأرضه وبيئته التي تربى فيها وترعرع وشكلت مهدا لصباه ومراهقته وشبابه.

لقد تناول النقاد والدارسون هذه الظاهرة في الشعر العربي عموما، غير أن الشعر الموريتاني ظل بعيدا عن تلك الدراسات، على الرغم من خصائصه ومميزاته التي تشبه كثيرا الشعر العربي، وتشابه البيئة الموريتانية الصحراوية وأنماطها الاجتماعية البدوية التي تعد مهدا ومجالا خصبا لنشوء ظاهرة الاغتراب والحنين إلى الأوطان، وهذا ما جعلنا نختار هذه الظاهرة للوقوف على طبيعة تشكلها في المجتمع الموريتاني، وكيف تعامل معها الشعراء من خلال نصوصهم الشعرية.

مفهوم الغربة وأنواعها

يصعب تحديد مفهوم الاغتراب وإن اتفقت المعاجم العربية على مفهومه اللُّغوي، باعتباره البعد والنّوى والغربة عن الوطن، ويتدرج مفهوم الغربة من دلالتها المعجمية التي تعني الانتقال المكاني إلى الدلالة الزمانية التي تعني الارتباط بالماضي والعودة إلى مخزون الذكريات[1]

ونظرا لتشعب هذا المصطلح وكثرة المفاهيم التي ينتمي إليها سنضطر إلى الاكتفاء بمجالات كبرى تم من خلالها تفكيك هذا المصطلح ودراسته وتحديد دلالاته، بالإضافة إلى ارتباطها بالجانب النفسي والذاتي للإنسان وتأثيراتها المباشرة على مشاعره وأحاسيسه، وانعكاس كل ذلك على سلوكه وتعبيراته وتصرفاته.

---

[1] شلتاغ عبود، في المصطلح الثقافي والتغريب، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع33، دبي الإمارات العربية المتحدة، 2001، ص 52

وقد قسم الدارسون الاغتراب إلى عدة أنواع فمنه **الاغتراب الثقافي** الذي يعني ابتعاد الفرد عن الثقافة الخاصة بمجتمعه، وأنماط السلوك المعرفي والفكري المجتمع ومخالفة المعايير التي تضبط سلوك أفراده.

ويعد **الاغتراب الديني** أحد أبرز أنواع الاغتراب التي يعيشها الإنسان على وجه العموم، حيث ذهب بعض الباحثين إلى أن الاغتراب أساسه ديني لأن دلالات الاغتراب في مجملها تعود إلى الشرائع السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية)[1]

وهناك من يرى أن الإسلام في جوهره ظاهرة اغتراب وتحول اجتماعي نوعي[2] لكونه هجرة للبشرية من العبادات الوثنية إلى الوحدانية، وقد ظل المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية غرباء بين أهلهم وقبيلتهم إلى أن زالت تلك الغربة مع انتشار الإسلام واتساع دائرته وسيعود الإسلام غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء.

وهناك **اغتراب نفسي** ويقصد به "حالة نفسية يشعر الإنسان من خلالها بانفصاله عن الآخرين وعدم الانسجام معهم، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي مما يضطره إلى الانعزال والشعور بانعدام قدرته على تحقيق طموحاته مع وجود قوة اجتماعية لا تؤمن بوجوده ولا تنتظر منه تحقيق أي مكتسب[3] بواعث الغربة.

إن الحديث عن الدوافع الذاتية والعوامل الخارجية حديث محفوف بعدم اليقين وانعدام شروط الجزم والتأكيد نظرا لارتباطه بالجوانب النفسية والعاطفية وما تنطوي عليه النفس البشرية من مكنونات وخلجات يستحيل حصرها ويصعب استقصاؤها وبالتالي فإن بواعث الاغتراب الذاتية والموضوعية قد تتداخل وتتشابك نظرا لارتباط الأسباب الذاتية بالعوامل النفسية وتعلق الدوافع الموضوع بالظروف الاجتماعية ولعل أهم تلك العوامل **الحنين إلى الأوطان والشوق إلى الأهل وفراق الأحبة ولحظات توديعهم والرحيل عن ديار الأحبة والإحساس بالبعد والوحدة**

الاغتراب في الشعر العربي

إن الحديث عن جذور الاغتراب في الشعر العربي يبين أنها ظاهرة أحس بها الشاعر على مر العصور، وعبر عنها بأصدق المعاني وأرق العبارات، وبما أن الشعر يتناول الذات المغتربة فمن

---

[1] . القلق والاغتراب في شعر دعبل الخزاعي أحمد علي إبراهيم، مجلة الأستاذ، العدد 109، كلية التربية جامعة بغداد، 2010، ص 3 . 4

[2] . الاغتراب في الفن دراسة في الفكر الجمالي المعاصر، عبد الكريم هلال، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، 1998، ص 52

[3] . علاء زهير عبد الجواد، في بحثه أسباب ومظاهر الاغتراب الثقافي، مجلة كلية بور سعيد العدد السادس 2009م، ص 61.

الضروري أن نجد نماذج من الاغتراب في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، وحتى العصر الحديث مرورا بمختلف العصور الزمنية التي برزت فيها الظاهرة بشكل كبير وعززتها عوامل سياسية واجتماعية وثقافية. ولعل تجارب الشعراء كامرئ القيس وعنترة وشعراء الصعاليك مع مجتمعاتهم وما عانوهم من من شعور بالهامشية والخذلان أولى مظاهر الاغتراب الذي عبر عنه هؤلاء الشعراء أدبيا، وفي العصر الأموي، وظهور الدولة بطابعها الإسلامي، وسلطان الخلافة الوراثية، بقيت عوامل الحنين والغربة والاغتراب في مجملها شبيهة بالعصر الجاهلي، مع ازدياد أسباب الغربة فبقي النزوح عن الأوطان، والرحيل في طلب الرزق، والهرب من ظلم الولاة وقسوتهم[1].

وزادت عوامل الاغتراب في العصر العباسي نتيجة دواعي وأسباب سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية، حيث كانت لهذه العوامل أدوار فعالة في إبراز الغربة الاجتماعية والسياسية والذاتية والزمانية وغيرها كثير.

في حين شهدت هذه الظاهرة تطورا كبيرا في الأدب الأندلسي خصوصا مع بداية سقوط المدن الأندلسية، وتدهور الأوضاع الأمنية، مما أدى إلى تأثر الشعراء بهذه الأوضاع وأقض مضاجعهم واضطرهم للارتحال من مدنهم إلى مدن أخرى داخل الأندلس، أما في العصر الحديث فقد توسعت ظاهرة الاغتراب لتشمل مناحي كثيرة سياسية واقتصادية وثقافية وقد بدأ الظاهرة نتيجة لعدة عوامل تفاعلت فيما بينها.

أما في موريتانيا فقد شكلت البيئة الموريتانية مكانا مناسبا لنمو وتطور ظاهرة الاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين، نظرا لاعتماد الموريتانيين في حياتهم على الترحال وطلب الانتجاع، في حركة دؤوب في المجال الجغرافي جنوب الصحراء، في تشابه يصل حد التوافق بين الحياة الموريتانية والحياة العربية القديمة.

ولعل أبرز العوامل التي أسهمت في نمو ظاهرة الاغتراب في نطاق التداول الأدبي هو طبيعة حياة الصحراء والبداوة الموريتانية وما انطبعت به من سمات البداوة حيث صارت الخيمة منزلا والناقة وسيلة نقل والآبار مصدر للماء، والرعي والانتجاع مصدرا للعيش والبقاء، في بيئة يقتضي العيش فيها التنقل بين مناطقها تبعا لمقتضيات الفصول ومتطلبات الرعي.[2]

---

[1] . يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، من 2453

[2] . ددود بن عبد الله، الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الثاني 1992، ص 13.

وفي هذا السياق يجد الشعراء معاناة كبيرة في فراق ديارهم، في هذه الرحلة الأبدية، التي تتطلب صبرا وقوة تحمل وتجلد حيث يقول سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني.

تـــجلـد ت للـــتوديـــــع والقـلـــب جـــــازع وأخـــفيـــــت مـــا كـــادت تبـــــين المـدامـع

تـرقـــــرق دمـــــــع لَـــــــوْ أطـعـــتُ غُروبه ذرفـــن كأجـــرى مـــا تُفـــــيضُ الـــدوافـــع[1]

ويمثل **الوقوف على الديار وبكاؤها** أكبر مثيرات الاغتراب والشجن لدى الشعراء الموريتانيين، ولذلك فإن المدونة الشعرية الموريتانية زاخرة بهذه اللحظات التي يصف فيها الشاعر أحاسيسه اتجاه الأطلال. ولا فرق عند الشعراء الموريتانيين بين أطلال المنازل التي توطنها الشاعر، واحتضنت جزءا من حياته وكانت مهدا لصباه، أو تلك التي سكنها الأحبة وتوطنوا بها ولو برهة من الزمن.[2]

كما يخبرنا بذلك الأحول الأحسني.

هَذِي مَغَانٍ حَوَتْ دَعْدًا وَذَابَلَدُ كَانَتْ تُحَلِّيهِ أَيَّامَ الصَّبَا دَعَدُ

فَقِفْ وَسَلِّمْ وَسَائِلْ وَابْكِهَا كَمَدًا إن كَانَ يُبْكِي مَآفِي طَرْفِكَ الْكَمَدُ[3]

ويعكس الاغتراب الذاتي والاجتماعي وفقدان الشاعر لأترابه وأجناسه، وانعدام الأنيس الذي يفهم ويعيش مع الإنسان خصوصياته الفردية والثقافية، جانبا من تجليات الاغتراب لدى الشعراء من ذلك قول محمد بن محمد العلوي لدى السلطان مولاي عبد الرحمن بمراكش.

هل في بكي نازح الأوطان من باس أم هل لداء رهين الشوق من آس

أم هل معين يعين المستهام على ليل كواكية شدت بأمراس

آه المغترب بالغرب ليس له جنس وإن كان محفوفا بأجناس[4]

---

[1] . أحمد الامين الشنقيطي الوسيط في تراجم أدباء شنقيط القاهرة الخانجي، منير ط4، ص 294

[2] فهمي، ماهر حسين، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية،1970م، ص 9

[3]. الشعر والشعراء في موريتانيا، مصدر سابق، ص 90

[4] . أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصدر سابق، ص 52.

هذا ابن الشيخ سيدي الأبييري[1] ينادي الساقية الحمراء بعد أن أيقن غربته، وبدأت نفسه تنظر إلى العامل الزمني نظرة مغترب اشتاق إلى أوطانه، يقول

أحمراء السواقى ما ورائي ألان غربت أيها الانتشائى

تحال نصيص فتل العيس شهراً يدوم من الصباح إلى المساء[2]

ملامح الاغتراب في الشعر الموريتاني

لقد شكل التشابه القائم بين القصيدة العربية الموريتانية والقصيدة العربية القديمة عاملا كبير في اتساق نظرة الشاعر لمحيطه وفق تصورات ذهنية أملتها مقتضيات البيئة وقوانين الجغرافيا.

ومن أبرز ملامح الاغتراب في الشعر الموريتاني بروز ظاهرة مناجاة الأمكنة والديار وبكائها حيث تكتسي هذه اللحظة علامة فارقة لدى الشعراء، لأنها تعبير مباشر وحوار نفسي عاطفي لأمكنة لا تجيب على الرغم من ما تختزنه حكايات وذكريات جميلة، من ذلك قول الشاعر الأحول الحسنى يستعيد أمكنة كانت ذات يوم حضنا لدعد،

هَذِي مَغَانٍ حَوَتْ دَعْدًا وَذَا بَلَدُ كَانَتْ تُحَلِّهِ أَيَّامَ الصَّبَا دَعَدُ[3]

فَقِفْ وَسَلَّمْ وَسَائِلْ وَابْكِهَا كَمَدًا إِنْ كَانَ يُبْكِي مَا فِي طَرْفِكَ الْكَمَدُ

ودعد هذه قد لا تكون شخصية حقيقية وواقعية بقدر ما قد تكون كناية عن شخص ما يحن إليه الشاعر، وقد تكون جريا على عادة شعرية قديمة اتسم بها الشعر الموريتاني واتصف بها.

---

[1] . الشيخ سيدي بن المختار بن الهيب الأبييرى، ثم الإنتشائى، ونسبه الأصلى يرجع إلى تندغ، انظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 240

[2] المصدر السابق، ص 247

[3] . الدكتور محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان الرباط، الطبعة الثانية 2003م، ص 90.

كما يمثل حوار الزمن لدى الشعراء الموريتانيين جانبا من إحساس الشاعر بالاغتراب، حيث طغت محاورة الزمن والتعلق بذكريته وأحداثه على نصوص الشعراء المتعلقة بالتعبير عن حنينهم واشتياقهم إلى الديار الأحبة والأهل والأحبة والوطن.

ويكاد الشعراء الموريتانيون يلتقون حول الزمن كجزء من ذلك الحوار الأزلي الذي طرحه الإنسان منذ القدم، عاكسا من خلاله صورة من صور استسلامه وضعفه، فلا تكاد تراه إزاءه إلا مستسلما معلنا انسحابه بعد صراع متهافت، مما يتجسد في عدة مواقف تجمعها بؤرة ذلك الاغتراب.[1]

ويعد البرق والمزن وحركة الريح والسحب وهطول الأمطار من مثيرات الأشواق والاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين لكونها تذكره بأحبابه وأهله وأوطانه، ومنها البرق، فكل تلك المحفزات والرؤى تثير عواطف الحنين، وأشواق العودة إلى الأحبة والوطن الحبيب.

فهذا الشاعر محمد بن محمدي العلوي أثار في نفسه برق يلوح بمنطقة العقيلات، كوامن الاشتياق والغربة والحنين لديار قومه، فانطلق يستسقي الغمام لأرضه وموطنه.

أرْضَ العُقيلاتِ يا برقَ الحَيا وعَلى أحْيَائها لعيون الشائمين لُحِ

ولا تُرِقْ دونَها في الأرض مِلءَ فَمٍ من سارِياتِ رَوايا ودقك الدُّلُحِ

حوْلَ المُلَيْحَة خيّمْ واغدونَّ ورُحْ ثمَّ اغدوَنَّ وَرُحْ ثمَّ اغدوَنْ ورُحِ

ولا تَزَلْ مُسْتطيراً مثلَ ما رَمَحتْ بُلْقُ العوادي زهاها فادحُ المرحِ

حتى إذا عَمَّتِ السُّقْيا مسارحها فاسقِ المسارح من بارين واسترِحِ[2]

ويعد **شوق الأحبة ورحيلهم أو الرحيل عنهم** جوهر الاغتراب ودعاته وأساسه، لأن مدار كل ما ذكر من مثيرات وتجليات للغربة وعواملها، تعود في مجلها إلى علاقة الإنسان بخليله وأحبابه بالمفهوم

---

[1] . ماهر حسن فهمي، الغربة والحنين في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات، دب، د ت، د ط، ص 34

[2] . أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصدر سابق، ص 66.

الشامل، لقد جاءت المقاطع الشعرية التي تتصدر عادة القصائد ذات المضامين المتعلقة بالاغتراب فيضاً عفوياً مصدره العواطف، ومتنفسا عن الهموم وجلاء لأسى الغربة والحنين[1].

الأساليب الشعرية وطرائق التعبير في شعر الاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين

لقد اختار الشعراء الموريتانيون في وصفهم للحنين الذي ينتابهم جراء اغترابهم وشوقهم ألفاظا تعود في جذورها اللغوية للاغتراب بمشتقاته الفرعية حيث تعكس النصوص الشعرية التي تتناول هذه الظاهرة الحالات النفسية والعاطفية لدى الشعراء ومستويات حنينهم واشتياقهم للأهل والأوطان حيث تكثر في تلك النصوص مفردات من قبيل (نازح، الأوطان، رهين الشوق . المغترب الركب وحشة أرض الغرب) فهذه العبارات كلها وما يحيطها من عبارات تجاري النسق العاطفي لدى الشعراء الذي يتسم بالشوق والحنين.

ولا تخفى النزعة الغنائية التي تتسم بها النصوص الشعرية لتنسجم مع الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، في غربته، وما ينتابه من أشواق إلى ديار قومه.

وتكثر في النصوص الشعرية المنتمية إلى مجال الاغتراب مرادفات تدل على الغربة من قبيل (الأسفار والبعد والظعن توديع الأحبة الهجر) ونحوها من العبارات التي تتلازم وحالة الفراق والرحيل لعلاقتهما بالموضوع.

وقد يلجأ الشاعر الموريتاني في أحايين كثيرة إلى الاستغراق الكلي في وصف ماضي الديار التي اندرست، وكيف كانت مسرحا للخلان والأهل والأحبة، ثم ينطلق في وصفه بعض مغامراته أحيانا، وفي بعض الأحيان يكتفي بوصف جمال محبوبته واشتياقه للحظات الأنس بينهما.

وتبرز كثيرا في شعر الغربة لدى الشعراء الموريتانيين اللجوء إلى مفردات الطبيعة وتفاصيل الجغرافيا وأنماط التضاريس التي ألفوها في أوطانهم ومرابعهم ولذلك نجد نصوصهم محملة بألفاظ تدل على البيئة عاشوا فيها من أودية وسهول وأشجار وحتى الحيوانات التي يستخدمونها في أنماطهم المعيشية.

ومن الألفاظ الدالة على الغربة في نصوص الشعراء الموريتانيين ذكر الأحبة والخلان والصحب والرفقاء والندماء، وهي ألفاظ في مجموعها تحيلنا إلى حالة من الفراغ النفسي والعاطفي الذي يعشه الشاعر حنينه للألفة وأحاديث الخلان والندماء، والمذاكرات التي كانت تجري في المرابع.

شعرية الصورة في شعر الاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين

لقد أخذت الصورة الشعرية في المدونة الشعرية الموريتانية أبعادا متعددة لا سبيل لحصرها، لكنها اعتمدت في تشكيلاتها الذهنية على فضاء البادية ومتعلقاته، والاعتماد في تفاصيلها على الخلفيات

---

[1] . الدكتور شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلامية، مطبعة جامعة دمشق، 1959م، ص 9

البيئية التي تشكل مرجعا للشعراء ومخاطبيهم بحكم الحياة والأنساق الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالمجتمع الموريتاني، حيث تستند على الواقع والبيئة، وتستخدم الخيال الشعري، وتصدر عن الشعور الوجداني. وقد تعددت الأساليب التصويرية التي تأسست عليها الصورة الشعرية ذات الأبعاد الخيالية عند الشعراء الموريتانيين، حيث شملت التشبيه بأنواعه، والاستعارة، والكناية، والطباق، والجناس، وبراعة الاستهلال وغيرها، وهذه مجالات ظل الشعر الموريتاني المرتبط بالغربة يسبح في دوائرها، ويمتاح منها المعاني والأخيلة والصور الشعرية

أما البنية الإيقاعية في شعر الغربة الموريتاني فقد تنازعت بنيتان إيقاعيتان، شعر الاغتراب لدى الموريتانيين لكل منهما دوره في عملية بناء النص الشعري، بصورة إبداعية وجمالية، وفق نمط من الأساليب اللغوية والموسيقية ذات التأثير النفسي والعاطفي[1] وينقسم الإيقاع في قصيدة الاغتراب الموريتانية إلى إيقاع خارجي، متعلق ببحور الشعر العربي التي تم التعارف عليها، بالإضافة إلى القوافي ورويها الثابت الذي تقف عليه أبياتها، وإيقاع داخلي منصرف إلى البناء اللغوي داخل جسم القصيدة، والذي يعتمد التكرار والطباق والتورية والألفاظ ذات الجرس الموسيقي والأحرف وأنماط ربطها والجمل والأنساق التركيبية التي تتواشج بها في بنية القصيدة.

الخلاصة

بناء على ما تقديمه في محتوى فصول ومحاور هذا العنوان يمكن أن نخرج بالخلاصات والاستنتاجات التالية:

- أن الغربة أو الاغتراب تتعلق بكل إحساس عاطفي ونفسي بالحنين إلى الوطن أو الأهل والأحباب أو لزمن معين
- أن الحياة البدوية في موريتانيا، وعوامل التنقل والانتجاع والترحال في طلب الكلإ، ساهمت كثيرا في تهيئة الظروف لنشوء ظاهرة الاغتراب في الشعر الموريتاني، كما عززت رحلات الحج وطلب العلم في الأقاليم، والحركة الثقافية والتجارية بين موريتانيا والدول المجاورة في طغيان هذه الظاهرة لدى الشعراء الموريتانيين.
- لقد وظف الشعراء الموريتانيون قدراتهم الإبداعية في استخدام الصورة الشعرية بأبعادها التخييلية خدمة لمعانيهم الأدبية، وتقريب حالاتهم الشعورية بأبعادها العاطفية والنفسية، فرسموا بأدوات الشبيه والاستعارة والكناية وغيرها لوحات أدبية متكاملة

---

[1] . للتوسع أنظر: أحمد مطلوب في فصول في الشعر، والدكتور عبد الكريم راضي جعفر في رماد الشعر، وشوقي ضيف في كتاب شوقي شاعر العصر الحديث

- لقد جاءت النصوص الشعرية في شعر الغربة، محملة بمشاعر الغربة والحنين للأوطان، وبكاء الديار والدمن، والاشتياق للأحبة، والحسرة على انقضاء أزمانها، والدعوة والاستسقاء لها، والرغبة في تجدد الحياة في ربوعها وأطلالها.
- سعى الشعراء الموريتانيون إلى توظيف جماليات اللغة، وما تتيحه من إيقاعات موسيقية في تراكيبها وأجراس مفردات، لخدمة المعنى الذي يريد الشاعر أن يقدمه للمتلقي، ويكشف به عن طبيعة تجربته العاطفية، وشعوره بالاغتراب عنها.